عدوليس ...ميناء إرتري عريق خلال العصور القديمة



محمود عبدالله أبوكفاح

تقع مدينة " عدوليس " الساحلية القديمة على ساحل البحر الأحمر في إرتريا، عند ملتقى طرق التجارة بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي وقد ورد ذكرها في العديد من المصادر الكلاسيكية والبيزنطية إلى جانب موانئ أخرى على البحر الأحمر, وقد لعبت هذه المدينة المينائية القديمة دوراً محورياً في الربط بين شبكات التجارة الرومانية والبيزنطية والهندية لأكثر من سبعة قرون.

تقع المدينة على بعد 56 كم جنوب مدينة‘‘ مصوع ’’ويطلق عليها السكان المحليون اسم ‘‘أزولي’’، وهي كلمة تعني حرفياً‘‘ ذات اللون الأبيض) ’’في إشارة إلى الرمال البيضاء .(واستناداً إلى دراسة إثنوغرافية أُجريت عام2013 ، أطلق السكان المحيطون بالمنطقة اسم‘‘ أزولي ’’على المدينة لأن أول قارب نُقل عبر ساحل البحر الأحمر في خليج‘‘ زولا ’’كان يحمل هذا الاسم وبذلك، جاءت التسمية نتيجة لهاتين الروايتين للأحداث التاريخية.

في العصور القديمة، كانت‘‘ عدوليس ’’تُعد واحدة من أشهر المراكز التجارية) الموانئ (في العالم إذ زارها العديد من المؤرخين والتجار ودونوا ملاحظاتهم التي أصبحت اليوم مصادر تاريخية أساسية للكشف عن جوانب من تاريخها ووفقاً للمسح الأثري الذي أُجري بين عامي 2003و 2004، تبلغ مساحة الموقع التاريخي لمدينة‘‘ عدوليس 40 ’’هكتاراً) أي 0.4 كيلومتر مربع.)

تشير الروايات التاريخية المختلفة إلى أن‘‘ عدوليس ’’كانت مركزاً تجارياً ونقطة تواصل ثقافي منذ أوائل الألفية الثانية قبل الميلاد وحتى القرن السابع الميلادي، حيث ربطت بين ضفتي البحر الأحمر والشرق الأقصى وحوض البحر الأبيض المتوسط.

لقد كانت منطقة تتمتع باستقلالية، وشكلت المسار التجاري الرئيسي والمحرك الأساسي لتطور حضارة‘‘ عدوليس-أكسوم ’’في الفترة الممتدة من القرن الأول إلى القرن السابع الميلادي.

وقد ورد ذكر" عدوليس "في وثيقة" طواف بحر إرتريا (Periplus of the Erythrean Sea)" التي تعود للقرن الأول الميلادي إذ تذكر الوثيقة أنها كانت تقع على بعد 3 كيلومترات من الساحل، وكانت مركزاً لاستيراد وتصدير بضائع مثل قرون وحيد القرن، والعاج، وأصداف السلاحف، وحجر السج , والعبيد، والبخور، وذلك عبر طرق تجارية شملت البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي.

وفي القرن السادس الميلادي، ذكر راهب يُدعى" كوزماس إنديكوبليوستس - "في كتابه "الطبوغرافيا المسيحية - (Christian Topography) "أن" عدوليس "كانت قرية كبيرة الحجم تعمل كمركز لنقل البضائع من البحر الأحمر إلى وجهات متعددة تشمل البحر الأبيض المتوسط، والمحيط الهندي، والأراضي العربية، والشرق الأوسط والأقصى، وآسيا، بالإضافة إلى المناطق الداخلية من القارة الأفريقية.



كان" هنري سولت "أول من حدد موقع أطلال" عدوليس "في أوائل القرن التاسع عشر حيث يُظهر المخطط الذي وضعه" سولت "لخليج" أنيسلي) "خليج زولا (بوضوح أطلال مدينة "عدولي(Adule) "بالقرب من قرية" زولا ."

كما تضمنت سجلات رحلاته) الصادرة عام1814 ، اللوحة (31 رسماً لإناء حجري عُثر عليه في الموقع أما أول مسح أثري للموقع فقد أجراه كل من" فينيو "و"بيتي "عام1840 ، وذلك في إطار بعثة علمية فرنسية إلى الحبشة بقيادة" تيوفيل لوفيفر.(1845) "

وقد حدد هذا المسح بوضوح التلال الكبيرة التي تميز" عدوليس"، مع تفصيل وجود ثلاثة معابد)ما عُرف بـ" مثلث المعابد ("صنفتها البعثة على أنها معابد بيزنطية الطراز.

في عام1868 ، خططت" بعثة نابير "القادمة من إنجلترا لعملية عسكرية في" مجدلا "بإثيوبيا بهدف تحرير الدبلوماسيين البريطانيين الذين كانوا محتجزين لدى الملك" ثيودروس "وخلال رحلتهم، قام بعض الهواة بأعمال تنقيب في موقع" عدوليس"، حيث عثروا على كنيسة كبيرة ومجموعة من القصور والقطع الأثرية وتُعرض حالياً بعض هذه المكتشفات في المتحف البريطاني.

وفي عام1907 ، أجرى عالم الآثار الإيطالي" بارابيني "عمليات تنقيب واسعة النطاق في القطاع الشمالي الغربي شملت نحو 20 موقعاً، وعثر على أعمدة ضخمة تشير إلى وجود مبانٍ كبيرة مثل الكنائس والمعابد كما كشف عن طبقات سميكة من الرواسب الأثرية، وهو ما اعتبره "ستيوارت مونرو-هاي "دليلاً على أن تاريخ الموقع يعود إلى فترة أقدم بكثير من القرن الأول الميلادي، مرجحاً أنه كان يشكل مركزاً قائماً بذاته قبل أن يهيمن عليه سكان المرتفعات.

كانت" عدوليس "مركزاً للتبادل التجاري مع مختلف أنحاء العالم وهنالك أدلة وافرة على ذلك مستمدة من الحفريات السابقة، وروايات المستكشفين، والأبحاث الأثرية الحديثة التي أُجريت على ساحل البحر الأحمر وفي موقع أدوليس نفسه .ففي القرن الأول الميلادي، ذكر مؤلف كتاب "طواف البحر الإرتري- (Periplus of the Erythraean Sea) "وهو تاجر يوناني-مصري - أن الفراعنة المصريين أقاموا روابط تجارية نشطة مع الأجزاء الجنوبية من البحر الأحمر، ولا سيما مع عدوليس .ووفقاً لما ورد في هذا الكتاب، تعرضت السفن الراسية في عدوليس لهجمات انطلقت من البر الرئيسي، مما يؤكد أن سيطرة ملك أكسوم على المنطقة لم تكن مطلقة.

كما يصف المؤلف عدوليس بأنها كانت الميناء الشرعي الوحيد على الساحل الأفريقي، مما يشير إلى أن التجارة كانت تحظى بالحماية بموجب سلطة الدولة أو القانون .واستناداً إلى المؤرخ كارلو كونتي روسيني، يبدو أن عدوليس- في الحقبة التي كُتب فيها ذلك الكتاب -كانت مستوطنة أُقيمت لغرض التجارة، ولم تكن بالضرورة مدينة أسستها قوة أكسوم الصاعدة آنذاك .وعلاوة على ذلك، أشار روسيني إلى أن الميناء كان مقصداً للتجار القادمين من الإسكندرية وخليج إيلات.

وتشير مقالة نُشرت عام 2003 ضمن كتاب بعنوان" مصوع والبحر الأحمر "إلى أن أدوليس كانت ميناءً تجارياً بالغ الأهمية في الفترة الممتدة من القرن الأول إلى القرن السابع الميلادي .

كما ذكر رودولف فاتوفيتش أن البحارة البطالمة كانوا يرتادون الموقع على الأرجح خلال العصر الهيلينستي) القرون الثالث إلى الأول قبل الميلاد (وأوضح أيضاً أن وجود مواقع تعود للعصر الحجري في السهول الساحلية المحيطة بخليج زولا يشير إلى أن المنطقة كانت مأهولة بالسكان منذ آلاف السنين.

ذكرت كيارا زازارو في تقريرها عن تنقيبات عام 2012 أن" عدوليس "كانت أهم ميناء تجاري في شمال القرن الأفريقي خلال العصور القديمة إذ كانت بمثابة الميناء الرئيسي للمستوطنات الحضرية في المرتفعات الإرترية وكذلك لسكان المناطق الساحلية والجزر الممتدة من الصومال وحتى أرخبيل دهلك وقد حظيت المنتجات المحلية- مثل العاج وقرون وحيد القرن وأصداف السلاحف وحجر الأوبسيديان -بشهرة واسعة في العالم القديم بأسره، من حوض البحر الأبيض المتوسط وحتى الشرق، وذلك منذ العصر الفرعوني حيث كانت المنطقة تُعرف آنذاك باسم" أرض بونت."

وباعتباره ميناءً استمر نشاطه لفترة طويلة، فقد كان بمثابة بوابة للناس والأفكار والسلع والقوى التي تركت أثراً كبيراً في تاريخ إرتريا، وربما يعود ذلك إلى الألفية الأولى قبل الميلاد وما تلاها .وفي الواقع، يعكس ظهور المعتقدات المبكرة المشتركة بين شعوب المنطقة ومملكة سبأ التبادلات الثقافية المتبادلة التي حدثت بين ضفتي البحر الأحمر المتقابلتين.

كما أن دخول المسيحية لاحقاً- وكذلك استخدام العملات النقدية -كان نتيجة لتفاعل تجاري وثقافي طويل الأمد مع الرومان والبيزنطيين عبر البحر الأحمر وبالمثل، فإن انتشار الإسلام ووصول طلائع العرب إلى منطقة القرن الأفريقي قد بدأ أيضاً من المناطق الساحلية والجزر الإرترية.



حددت عمليات المسح الأثري التي أُجريت في" عدوليس "خلال عامي 2003 و- 2004بجهود مشتركة بين المتحف الوطني الإرتري، وجامعة أسمرا، وجامعة ساوثهامبتون، ومتحف شمال البحر الأحمر -ثمانية أنواع من الأواني الفخارية) الأمفورا (التي يعود تاريخها إلى الفترة الممتدة من الألفية الثانية قبل الميلاد وحتى القرن السابع الميلادي .وقد استُوردت هذه الأواني من اليونان ومصر وتونس وإيطاليا والمرتفعات الإرترية، مما يبرهن على مدى نشاط" عدوليس "في شبكات التجارة التي ربطتها بمختلف أنحاء العالم.

وعليه، فقد نجحت عمليات المسح في تحديد الموقع الدقيق ومساحة" عدوليس"، بالإضافة إلى موقع الميناءين التابعين لها, مما ساهم بشكل كبير في تعزيز وعي المجتمع المحلي بأهمية الحفاظ على الموقع وإدارته .وتشير الأدلة الأثرية والمصادر التاريخية المكتوبة إلى وجود مستوطنات ساحلية أو مراسٍ أخرى كانت تشكل- على الأرجح -جزءاً من المملكة التي كانت تدار انطلاقاً من ميناء" عدوليس "الرئيسي ,فعلى سبيل المثال، ثمة تشابه بين الطراز المعماري في" دهلك الكبير "وبين الفخار الذي يعود لحضارة" عدوليس "والمكتشف في جزيرة" ديسي."

في عام2005 ، أجرى ديفيد بيكوك وبلو لوسي من جامعة ساوثهامبتون أبحاثاً في مصر حول فخار يُعتقد أنه يعود لأصول من مدينة" عدوليس "وقد عُثر على هذا الفخار العدولي في الموانئ المصرية القديمة" ميوس هورموس "و"برنيس"، إلى جانب العاج وأصداف السلاحف التي كانت تُصدّر عبر عدوليس .كما تم تحليل قطع من حجر السج التي عُثر عليها في سياقات أثرية رومانية في القصير) ميوس هورموس(، وأظهرت التحاليل أنها ذات أصل إرتري .ويُعد اكتشاف

حطام سفينة عند جزيرة" أساركا "على يد السيد بيدرسون عام 1999 فرصة أثرية نادرة لدراسة الملاحة البحرية القديمة في البحر الأحمر إذ يُرجح أن الحطام يعود للفترة ما بين القرنين الرابع والسابع الميلاديين، وهي الفترة التي تزامنت مع العصر العدولي في إرتريا، والذي شهد ازدهاراً كبيراً للتجارة القديمة في البحر الأحمر .وقد تكون جرار الأمفورا المكتشفة في جزيرة أساركا ذات أصل متوسطي، ولها نظائر أثرية في مواقع برية في كل من إرتريا ومصر وإسبانيا وتونس وغيرها.

واستناداً إلى روايات تاريخية قديمة متنوعة، كانت هناك أنظمة عقائدية مختلفة في عدوليس قبل دخول المسيحية في القرن الرابع الميلادي والإسلام في القرن السابع الميلادي فعلى سبيل المثال، كانت المعتقدات المرتبطة بالآلهة اليونانية- مثل زيوس وآريس وبوسيدون -من أكثر المعتقدات شيوعاً وشهرة في تلك الحقبة .وكما ورد في كتاب" الطبوغرافيا المسيحية ومملكة أكسوم"، طلب حاكم أدوليس،" أسباس"، من" كوزماس "نسخ النقشين الموجودين على عرشين من الرخام في عدوليس .وكان النقش اليوناني- الذي يُرجح أنه لا يزال مدفوناً تحت أنقاض أدوليس" -مزخرفاً بصور هرقل وهيرميس، ويمثل نسخة أكثر تفصيلاً وإتقاناً من العروش التي أقامها ملوك أكسوم وكرّسوها للآلهة الوثنية تخليداً لانتصاراتهم."

بدأت أولى عمليات التنقيب الطبقي في موقع" عدوليس "عام 2011 وشملت خمسة قطاعات، وذلك في إطار مشروع مشترك ضم كلاً من المتحف الوطني الإرتري، ومتحف اقليم شمال البحر الأحمر ، ومركز"CeRDO" ، وجامعة القلب المقدس الكاثوليكية (Università Cattolica)، وجامعة البوليتكنيك في ميلانو، وجامعة نابولي" لورينتالي (L'Orientale) " وقد ركزت الأبحاث على دراسة التسلسلات الطبقية والزمنية باستخدام تقنية التأريخ بالكربون المشع وتحليل الفخار ودراسة السمات المعمارية المميزة .وحتى الآن، تم تحديد أربع مراحل رئيسية تمتد زمنياً من القرن الأول الميلادي وحتى أوائل القرن السابع الميلادي .وبناءً على ذلك، أكدت البعثة الإرترية-الإيطالية وجود علاقات تجارية هامة وتبادلات ثقافية مع حوض البحر الأبيض المتوسط، والشرق الأقصى، والمناطق الداخلية من القارة الأفريقية إذ تشير المواد المستوردة إلى وجود روابط مع مصر والسودان والأردن وشبه الجزيرة العربية، فضلاً عن مناطق وسط وشرق البحر الأبيض المتوسط وإيران وجنوب آسيا.

لقد كانت الكنيسة البيزنطية- باعتبارها مركزاً دينياً -ظاهرة شائعة في الفترة الممتدة من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر الميلادي في المناطق الخاضعة للنفوذ اليوناني والروماني، وكذلك في مصر وسوريا وغيرها .وفي هذا السياق، يعود تاريخ الكنيسة البيزنطية المبكرة التي تم الكشف عنها في" عدوليس "إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وهي الفترة التي تلت دخول المسيحية رسمياً إلى المنطقة في القرن الرابع الميلادي كما امتد الإسلام من مكة المكرمة عام 615 ميلادية عبر البحر الأحمر ليصل إلى مصوع و"أدوليس "على يد الصحابة، أتباع النبي محمد) صلى الله عليه وسلم.(

تشمل أبرز المكتشفات التي عُثر عليها منذ بدء أعمال التنقيب في" عدوليس "عام 2011 تمثالاً بشرياً يعكس طراز فن" غوبتا) "المعروف في التقاليد الدينية الهندية (ويعود تاريخه إلى الفترة ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين و"تنوراً) "وهو حفرة مخصصة لشوي الأسماك لا تزال تُستخدم حتى اليوم في المناطق الساحلية لإرتريا وجنوب الجزيرة العربية (يعود تاريخه إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين وعملات ذهبية وبرونزية وشظايا دقيقة لسلاسل ذهبية وبقايا" مورتار) "هاون (مستوردة من منطقة البحر الأبيض المتوسط تحمل ختماً يؤرخها للقرن الثاني الميلادي ومصباحاً مستورداً من شمال أفريقيا والإمبراطورية الرومانية يعود للقرن الثاني الميلادي) وهو نمط اشتهر واعتُمد في ثقافة سكان المرتفعات الإرترية (وفخاراً نبطياً من الأردن يعود للفترة ما بين القرنين الثاني والثالث الميلاديين؛ وبقايا "مورتار "من منطقة وسط البحر الأبيض المتوسط) القرنان الأول والثاني الميلاديان (وبقايا مدفن بشري) يعود تاريخه إلى منتصف القرن الرابع الميلادي(، وغيرها .وحتى الآن، تم تحديد أكثر من 50 نوعاً مختلفاً من الفخار المحلي و 7أنواع من الفخار المستورد من خلال عمليات التنقيب في" عدوليس."



وختاماً، تجدر الإشارة إلى أن مدينة" عدوليس "الساحلية القديمة كانت تتمتع بموقع استراتيجي بالغ الأهمية على ساحل البحر الأحمر .وبناءً على المصادر الأدبية القديمة ونتائج الحفريات الأثرية- سواء السابقة أو الحديثة -يمكننا استنتاج أن" عدوليس "حافظت على قوة اقتصادية وعلاقات اجتماعية قوية ومستقلة مع مختلف أنحاء العالم، وكانت تخضع لحكم الملك المحلي "أسباس (Asbas) "أو" أباس.(Abas) "

شكلت" عدوليس "ركيزة أساسية لحضارة" عدوليس-أكسوم "ومحوراً لتطورها وتوسعها، وموقعاً شهد إقامة علاقات دبلوماسية وتسيير حملات عسكرية وتكوين روابط تجارية كما كانت البوابة الرئيسية لدخول المسيحية في القرن الرابع الميلادي والإسلام في القرن السابع الميلادي إلى المنطقة .وقد بدأ تطوير" عدوليس "كميناء منذ العصر البطلمي) القرن الثالث قبل الميلاد(، وليس فقط خلال فترة حضارة أكسوم) التي امتدت من القرن الأول إلى القرن السابع الميلادي (

ولذا، فإن عمليات التنقيب في أرض" عدوليس "البكر ستكشف للعالم وللمنطقة عن تاريخها وعلاقاتها التجارية وتفاعلاتها الاجتماعية والثقافية مع مختلف أنحاء العالم .وتتضمن الخطط المستقبلية إنشاء حديقة أثرية في مدينة الميناء القديمة لتكون وجهة يستمتع بزيارتها السياح المحليون والدوليون على حد سواء.

المصدر/ شابايت